سعيد بن الحداد القيرواني

رائد النضال السني بإفريقية في القرن الثالث الهجري

الدكتور: عبد المجيد بن حمدة

رئيس جامعة الزيتونة، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

سعيد بن الحداد القيرواني (219/834 ـ 302/915) هو أحد أعلام الفكر الإسلامي بإفريقية والمغرب؛ ومن أكبر علماء القرن الثالث/ التاسع، بالقيروان، ويبرز خاصة في النصف الثاني من هذا القرن، فلا ينازعه أحد في الرئاسة العلمية والدينية النضالية بها.

كان عميق الثقافة النقلية والعقلية، مفسرا، محدثا، فقيها مجتهدا، إخباريا ثقة، متكلما رأسا للمدرسة الكلامية السنية، بإفريقية، على عهده. عمل على تركيز المذهبية السنية؛ وقام بمجابهة المخالفين من أهل البدع وأصحاب النزعات المنحرفة؛ واشتهر بمواقفه من الشيعة الإسماعيلية لما اصطدم بهم المجتمع القيرواني في نهاية القرن الثالث الهجري، فناظرهم وأفحمهم، وكشف عن تهافت مقالاتهم وضلال دعواتهم.

فمن هو هذا الرجل العالم، المناضل، الذي تجمعت فيه الكمالات العلمية والاجتهادية والجهادية، وما هي طبيعة نشأته وتكوينه العلمي، وما هي أهم الجوانب العلمية البارزة في شخصيته؟

هذا ما سأحاول عرضه وتفصيله بقدر ما سمحت به المصادر التي عنيت بالترجمة له، وبقدر ما أمكن استخلاصه من مؤلفاته وآرائه ومواقفه.

هـو أبـو عثمان سعيد بـن محمد بن صبيح، الغسـاني، المشهـور بـابن الحداد(1) والحداد جدّه لأمه. وعوام القيروان يسمونه سعيد الحداد(2) وبذلك اتفق المترجمون لـه، على أن اسمــه سعيـد(3)، وكنيته أبـو عثمان(4)؛ وهم كثيرون إلا أن بعضهم ينقل عن بعض بـاقتضاب أو تـوسع. وأقدم أخبـار وردت عنه جاءت عن طريق محمد بن الحارث الخشني(5).

وأما أبو العرب، تلميذ ابن الحداد، فلم تصلنا ترجمته(6) لشيخه، في كتابه الشهير: طبقات علماء إفـريقية وتونس، الـذي حوى أخبـارا كثيرة عن حياة العلماء رواها عن ابن الحداد.

---

(1) اشتهـر علماء كثيرون باسم (ابـن الحداد) منهم أبو الفضل جعفـر بن مـوسى (ت 284/ 902)؛ ومنهم أبـو عثمان سعيد بن محمـد المعافـري، قتل حوالي (سنـة 1010/400) وهو أشهـر تلاميـذ ابن القوطي...

(2) الدباغ، معالم، 2/ 202.

(3) أشـار الخوانساري إلى أن اسمــه سعد، وذلك عنـدما تـرجم لسعـد بن محمد بن سعـد الصيفي التميمي، فقال: «ليعلم أن هذا الشيخ غير سعد بن محمد بن صبيح الأستاذ أبي عثمان الغساني القيرواني» (روضـات الجنات، ص 308). ثم ترجم له بعد ذلك بسعيد (ن. م، ص 313).

(4) ذكر رضا عمر كحالة: «وفي الوافي: ابن عثمان» (معجم المؤلفين، 4/ 230). وعند اطلاعي على كتاب الوافي بالوفيات الصفدي، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم 13317، لاحظت أنه لم يشذ عن غيره من المترجمين، قال: «سعيد بن محمد بن صبيح، الأستاذ أبو عثمان...» (الوافي، 13/ 99).

(5) طبقات علماء إفريقية، نشر محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1332/ 1914، ص 148 ـ 151.

(6) لـو وصلتنا تـرجمة ابن الحداد عن طريق أبي العـرب، لكانت أصـدق التراجم وأحفلها بأخبـاره، وأقربها إلى الواقع، فقد عايشه وأخذ عنه، وكان أبرز تلاميذه. رآه مغمورا، ثم مشهورا، في فقره وفي غناه؛ في حلقات دروسه وخـارجها، في مواقفه من الشيعة وغيرهم. والـذي يؤكد أن أبا العرب تـرجم لشيخه ما يلي:

أ ـ إن كتـاب أبي العرب لم يصلنا على الحالـة التي وضعه عليها، فقـد اختصره الطلمنكي، والذي بين أيدينا اليوم، هو مختصر كتاب الطبقات.

ب ـ شهـادة أبي العرب في أستاذه، وقـد أوردها المالكي وعياض. قـال المالكي: «قال أبو العـرب: كان عالما ثقة في الفقه والكلام، والذب والرد على الفـرق المخالفين للجماعة؛ من أدهى الناس وأعلمهـم بما قاله الناس» (رياض النفوس، 2/ 81 مخطوط)؛ وقال عياض: «قـال أبو العرب: كان أبو عثمان ثقة فيما ينقل، عالما بـالفقه والكـلام والذب والـرد على الفرق، ومن أدهى النـاس وأعرفهم فيما اختلفـوا «تراجـم أغلبية، مستخرجة من ترتيب المدارك، ص 352».

على أن احتمال ترجمة أبي العـرب لشيخه في كتاب آخـر، وارد، لكن الأقرب إلى طبيعـة هذا التاليف ـ طبقات علماء إفريقية وتـونس ـ أن يرد فيه ذكر ابن الحداد، وأن يحتل فيه مكان الصـدارة، باعتباره أحد المصادر الأسـاسية للمـؤلف. ويتمثل هذا في الأخبـار الكثيرة المنبثة في الكتـاب، والمنقولـة عن ابن الحداد، وباعتبار تتلمذ أبي العرب لهذا العالم، الأخباري الثقة، والذي لا يعقل أن يغفل عن الترجمة له. وإنما حذفه الطلمنكي فيمن حذف.

ورغم إيجاز ترجمة الخشني، إلا أنّ أغلب المترجمين اللاحقين(7) اعتمدوها أصلا بنوا عليه ما كتبوه عن ابن الحداد، واكتفوا بها. وأطال في نقل أخباره ومناظراته أبو بكر المالكي،(8) وعياض،(9) والدباغ(10).

وألف ابن أبي زيد القيرواني (ت 386/996) ـ من أكبر فقهاء إفريقية ـ كتابا فيه حكايات عن ابن الحداد(11). والكتاب لم يعثر عليه لحدّ اليوم، ويعتبر من التراث الضائع. كما كتب عن ابن الحداد، في عصرنا، حسن حسني عبد الوهاب(12)، وأستاذي محمد الفاضل ابن عاشور(13).

ولد أبو عثمان بالقيروان سنة (219/834) وعلى هذا التاريخ يتفق عياض والدباغ، إلا أنهما يضيفان: ويقال إنه ولد سنة (217/832)، والصحيح الأول.

نشأ ابن الحداد بالقيروان، وتعلّم عن كبار شيوخ العلم فيها أمثال سحنون وأبي سنان زيد بن سنان الأسدي (ت 244/858). وأخذ الحديث عن أبي الحسن الكوفي، في طرابلس. فلم تكن لابن الحداد رحلة مشرقية، بل كان نبتة إفريقية خالصة: نشأة وتعلّما وتدريسا وإشعاعا ونضالا.

اشتهر بإقباله على التعلّم ومدارسة العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، أعانه على التحصيل وعمق الفهم والتحليل، ذاكرة قوية، وعقل راجح، وشجاعة، وعفة، وأدب جم، فقد تمكن من حفظ كتاب سيبويه في النحو(14)،

---

(7) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، القاهرة، 1373/ 1954، ص 261 ـ 262؛ القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، القاهرة، 1371 ـ 1952، 2/53 ـ 54؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم 13317، 13/99؛ السيوطي، بغية الوعاة، القاهرة، 1326 هـ، ص 257؛ الخوانساري، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ط 2، 1347 هـ، ص 313؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، القاهرة، 1350/1931، 2/238؛ ابن عذارى، البيان المغرب، 1/172؛ الذهبي، سير النبلاء، مخطوط، 9/191..

(8) رياض النفوس، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم 1945، 2/32 ـ 57 أعارني مصورته أستاذي محمد العروسي المطوي.

(9) ترتيب المدارك، 3/71 ـ 74 ظ؛ تراجم أغلبية، ص 351 ـ 356.

(10) معالم الايمان، 2/202 ـ 215.

(11) ن. م، 3/138.

(12) ورقات، 1/258 ـ 263.

(13) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، ص 37 ـ 43.

(14) عياض، تراجم اغلبية، ص 352.

فضـلا عن حفظه للقـرآن الكـريم والأحاديـث العديـدة، وتـواريخ الرجـال والأمم.

أخذ عن ابن الحداد كثير من طلبة العلم، الأفارقـة والمغاربة والأندلسيين، منهم ابنـه محمـد، وأبو العـرب محمـد بن أحمد بن تميم (ت 333/944) الذي اعتمد شيخه اعتمادا واضحـا في نقل أخبار العلماء، وحرص على إيراد شهادتـه فيهم. ومن أشهر تلاميـذه أبو بكر محمـد بن اللباد القيرواني (ت 333/944)(15) وابن البرذون(16) وعلي بن منصـور الصفار(17).

ولقد كانت حلقة ابن الحداد تعج بالطلبة، ذكر عياض أن نصر بن رواح ـ أحد الخوارج دخل المسجد فوجده مزدحما بالناس، يستمعون إلى أبي عثمان وهو جالس في المحراب(18).

ومن الملامح البـارزة في شخصيـة ابـن الحداد عنـايتـه بتنظيم حيـاتـه المعيشية على أسس دقيقة، تلفت نظر البـاحث، نزولا تحت ضغوط وضعيته المادية، حتـى روي أنه إذا باضـت دجاجـة في داره، فرح أهله بـذلك، لأنهم يتمكنون من شراء بقل(19).

وقـد احتفظ الـدباغ بصـورة عن دقـة التنظيم المعيشي لابن الحداد حيث أورد البرنامج الأسبـوعي لنظامه في الأكل الذي كـان يقتصر فيه على تناول رطل من اللحم، صحبة عـائلته، تطبخ عظـامه في ليلة، وشرائحـه في أخرى، وفي الليلة الثالثة يتناولون حريرة؛ وفي الرابعة: سلقا وحمصا؛ وفي الخامسة: سلقا وسفنارية ـ جزرا ـ وفي الســادسة: سلقا وفولا؛ وفي السابعة يأكلون اللحم(20).

وهذا البرنامج الأسبوعي، بدون مغالاة، وثيقة تاريخية، اجتماعية ثقافية، تعـرب عن النمط المعيشي للفئـة الفقيرة، في المجتمع القيرواني، خلال القـرن

---

(15) حققت الكتاب الـوحيد المتبقي من مؤلفـاته، انظـر: ابن اللباد، كتاب الـرد على الشافعي، تحقيق وتقديم عبد المجيد بن حمدة، تونس، مطبعة دار العرب، 1986.

(16) الخشني، طبقات، ص 215.

(17) ن. م، ص 223.

(18) عياض، تراجم، ص 354.

(19) الدباغ، معالم، 2/211.

(20) ن. م 2/212.

الثالث / التاسع، كما تفصح عن حسن تدبير هذا العالم الكبير لمعيشة أسرته، عند اشتداد حاجته.

على أن ابن الحداد، مع ذلك، لم يغفل عن مكانته الاجتماعية المرموقة، فقد أولى مظهره الخارجي عناية بالغة. ولعله انتفع بما حكي عن البهلول بن راشد (ت 182/ 798) ـ كبير أهل الزهد في القرن الثاني/ الثامن، بالقيروان ـ الذي التزم بعدم تغيير ثيابه طيلة عشرين سنة، وتسبب له سوء مظهره في أحداث أليمة من أهمها أنه أخذ ذات يوم لحمل طعام الأمير، من الفرن، بأمر من خدم الأمير الذين ظنوه متسولا، أو رجلا عاطلا من سوقة القوم، ولم يتفطنوا إلى أنه الفقيه، العالم، الصالح، إلا بعد أن اكتوى بنار الطعام، وأهين أمام الناس.

وسواء استفاد ابن الحداد مما وقع للبهلول، أو كان ذلك موقفا ذاتيا يراد منه احترام أهل العلم وتعظيمهم في عيون الناس وخاصة الخصوم منهم، إذ كان مذهبه الدعوة إلى تحسين الملبس والتقليل من المأكل، وهو القائل: «المروءة في إظهار حسن الرياش، فأما المأكل والمشرب فهما مستوران» (21). سواء تعلق الأمر بالاتعاظ بما وقع لسابقيه، أو بقناعة شخصية، فإن ابن الحداد كان حسن اللباس، جميل الزي، قد أنفق على كسوته، في حالة فقره، مالا كثيرا، حيث قوّمت كسوته بعشرين دينارا(22) كما بالغ في الإنفاق على ملبسه، لما تحسن حاله بميراث مالي هام، فاقتنى ملابس بخمسين مثقالا، وهو مقدار كبير، إذ كانت مائتا مثقال، كافية لبناء مسكن لائق أوى إليه ابن الحداد وأسرته.

ولقد أغرى به مظهره جموع المتسولين، فكانوا يعترضون طريقه، ولم يكن يجد ما يعطيهم، خاصة في أيام عوزه، فكان يبتدر بعضهم بقوله: لطف الله بك، والله ما باطني إلا شر من ظاهري.(23).

وأظهر ما يتميز به ابن الحداد تحصيله العلمي الواسع، المتعدد الجوانب؛ مما جعل لشخصية هذا الرجل أبعادا كثيرة، فكان مفسرا، ومحدثا، وفقيها، ولغويا، ونحويا، ومتكلما، وإخباريا، وشاعرا.

---

(21) عياض، تراجم، ص 358.

(22) الدباغ، معالم، 2/ 203.

(23) عياض، المصدر السابق، ص 358.

وإني سأقتصر على عرض أهم الأبعاد التي توفرت بشأنها المعلومات المساعدة على تحديد ملامحها، وإبراز مقوماتها، والكشف عن مكانتها بالنظر إلى الأبعاد الأخرى، لشخصية ابن الحداد، وفي مقدمتها التفسير والفقه والكلام.

ابن الحداد مفسّرا

تجلّت ثقافة ابن الحداد الواسعة، والتي غطّت مجالات المعرفة السائدة، بعصره، في تناوله لتفسير كتاب الله تفسيرا دلّ على عميق فهم، وذكاء تحليل، وسلامة معتقد، وشجاعة علمية وأدبية، منقطعة النظير، إذ تناول الآيات المتشابهات التي كان يحجم عن الخوض فيها كثير من العلماء، لاسيما في البيئة القيروانية المتأثرة بفقه مالك، وهو الذي نهى عن الكلام في أسماء الله وصفاته، وأمر بالسكوت عن هذه القضايا كما سكت عنها الصحابة والتابعون لهم باحسان.

ولم يؤثر عن ابن الحداد تفسير كامل للقرآن، ولكنه كان يقول: «ما حرف من القرآن إلا وأعددت له جوابا، ولكن لم أجد له سائلا»(24). وقد ألف كتابا بعنوان: «**توضيح المشكل في القرآن**»، كما خص آيات كثيرة بالتفسير في كتاب الاستواء، هذا بالإضافة إلى ما كان يثيره في مناظراته من آيات يتولى شرحها وبيان مقاصدها، كل ذلك يدفع إلى اعتبار ابن الحداد أحد رجال التفسير بالمغرب العربي، خاصة وأنه لم يسبق في هذا المجال إلا من يحيى بن سلام الذي كان له منهج أثري نظري في التفسير، يتبعه فيه ابن الحداد، ثم يزيد عليه توسعا في استخدام الجدل والمناقشة، والتركيز على الناحيتين اللغوية والنحوية.

ويبدو لي أنه لو بقيت مؤلفات ابن الحداد لكان بالإمكان أن يستخلص منها تفسير كامل للقرآن، ولكن ضاع أغلبها، وفي مقدمة الكتب المفقودة كتاب: «توضيح المشكل في القرآن» الذي لو وجد لأعطى صورة أكمل عن مجهودات ابن الحداد في التفسير.

وأهم ما بقي في التفسير، لابن الحداد، قطعتان من كتاب بعنوان: «**كتاب الاستواء**» بهما نقص، مع الأسف، في البداية والوسط وآخر الكتاب، لكنهما

(24) الدباغ، المصدر السابق، 2/203.

مع ذلك تشتملان على تفسير آيات كثيرة، إذا عدّت، بدون اعتبار ما يتكرر منها أحيانا، كانت تقارب مائتي آية.

وفي تناول ابن الحداد للتفسير تظهر نزعته العلمية وإغراقه في الإدلاء بالشواهد المتنوعة الكثيرة، وميوله إلى المسائل النحوية، لذا قيل فيه حقا، إنه لم يعرف أحد أعلم بالنحو منه بإفريقية(25).

وكان يتوقف عند مشاكل لغوية، ويعنى بشرح المفردات الواردة في القرآن، كما يعرض للقراءات، ويفسر الآيات حسب القراءة المشهورة، ويعتمد ابن عباس كثيرا فيما روي عنه من قراءة وتفسير.

فسّر ابن الحداد قوله عزّ وجلّ: ﴿**خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ (الأعراف، 11) فقال: محتمل لأن يكون معناه: إنما خلقنا أباكم، ثم صورناه، فنسب إليهم ما هو منسوب إلى أولهم. ويورد آية أخرى في هذا المعنى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾ (الروم، 20) يعني خلق أباكم من تراب، ويلاحظ أنه مستعمل في لسان العرب أن ينسب الإنسان إلى أصله(26).

وسئل أبو عثمان عن قول الله سبحانه: ﴿**وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾ (يس، 40) فقال: مذاهب العرب يجعلون الليلة سابقة اليوم، ومذاهب العجم يجعلون اليوم سابق الليلة. وبيان هذا أن على مذاهب العرب تكون (لا) زائدة، وعلى مذاهب العجم تكون نافية(27).

ويشير إلى مجيء بعض الحروف في غير معناها فيقول: «وقد وجدنا، أو، التي هي لأحد الأمرين: تأتي على ضمير الخبر عن شك السامع، ويكون ذلك على المجاز، لا على أنه يطرد. وليس يأتي من ذلك شيء على المجاز، إلا بدليل يدل عليه، من ذلك قوله: ﴿**إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾(28)، ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾(29) ﴿**لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾(30) معناه: مائة ألف

(25) عياض، تراجم، ص 352.

(26) ابن الحداد، كتاب الاستواء، القطعة الثانية، من مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، بدون رقم، ضمن مجموعة مخطوطات المكتبة العتيقة لمدينة القيروان، ورقة 3 ظ.

(27) الدباغ، المصدر السابق، 2/214.

(28) الصافات، 147.

(29) النجم، 9.

(30) طه، 44.

أو يزيدون في تشكككم؛ فكان قاب قوسين أو أدنى فيما يتوهمه الناظر إليه، في قربه؛ لعله في رجائكما يصير إلى تذكرة وخشية(31).

ويبدو أن ابن الحداد قد تعرض لتفسير آيات كثيرة، في دروسه، لكن لم يحفظ لنا شيء من ذلك. أما مناظراته ـــ وهي عديدة، ضد المعتزلة والشيعة خاصة ـــ فقد سجِّلت بعض كتب التراجم شيئا منها، بسبب اشتهارها وارتباطها بالأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية لمدينة القيروان، خلال العقد الأخير من القرن الثالث الهجري، أي حين احتلال الشيعة الإسماعيلية القيروان وانتصابهم فيها حاكمين، مستبدين. ارتبطت المناظرات بهذه الفترة التي اعتبرت تحولا خطيرا في البنيات السياسية والاجتماعية والثقافية، إذ فرض الشيعة مذهبهم على الناس، بالقوة، وقتلوا معارضيهم، ونكلوا بهم، فهرب منهم ناس كثيرون في مقدمتهم علماء كبار، ولم يصمد أمام بطشهم إلا القليلون، كان على رأسهم ابن الحداد، أكبر معارض للشيعة الذين لم يمنعهم من قتله إلا شيخوخته المولية، فقد ناهز الثمانين، أيام دخولهم إلى القيروان.

وهذه أمثلة من تفسيره في المناظرات: قال له أبو عبد الله الشيعي: إن القرآن يقول: إن محمدا ليس بخاتم النبيين، فقال له: وأين ذلك؟ قال: في قوله: **﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾** (سورة الأحزاب، 40) وخاتم النبيين غير رسول الله. فقال له ابن الحداد: هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنما هي من واوات العطف كقوله عز وجلّ: **﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ﴾** (الحديد، 3) فهل أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عزّ وجلّ؟

وقال له الشيعي: اذكر من خاص القرآن وعامه شيئا، قال: نعم قال الله: **﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾** (البقرة، 32) فكان ظاهر الآية العموم، فلما قال في موضع آخر: **﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ، وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** (المائدة، 5) دلّ على الآية الأولى أنه إنما أراد بها الخصوص: المشركات غير الكتابيات.

(31) ابن الحداد، المصدر السابق، ورقة 15.

ويبدو من خلال الاطلاع على الآيات التي فسرها ابن الحداد، أن تفسيره يتسم بسمات يمكن تلخيصها فيما يلي:

1) التأويل للآيات المتشابهات.

2) اشتمال تفسيره على علوم كثيرة كالحديث والفقه واللغة والنحو.

3) تضمنه لآراء المخالفين وعرضها بأمانة.

وقد سار على منهج استخدم فيه كل معارفه الدينية والعقلية، فتميز بكونه منهجا أثريا، نظريا عقليا، ولغويا. وأهم خصائص منهجه تتمثل في النقاط الآتية:

1) تفسير القرآن بالقرآن.

2) تفسير القرآن بالاعتماد على أحاديث يرويها بسندها.

3) التفسير بالرأي والتأويل بناء على اطلاع واسع ومعرفة شملت العلوم النقلية والعقلية.

4) استخدام أسلوب جدلي في تفسيره، كإثارة أسئلة والإجابة عنها، وعرض آراء غيره من المفكرين وذوي المذاهب المختلفة والرد عليهم.

5) وقفات مطولة في مجالي اللغة والنحو خاصة.

6) الاستشهاد بأشعار العرب.

وهكذا تعرض ابن الحداد إلى تفسير آيات كثيرة في «كتاب الاستواء» وفي مناظراته، وكان يجادل بالآيات من حفظه، وهو على علم تام بمقاصدها، أفحم بها خصومه، إذ كانت حججه دامغة، ومنطقه قويا، تسقط أمامه التأويلات والأفكار والادعاءات الباطلة، خاصة ما يذهب إليه الشيعة الباطنية من تعطيل للنص القرآني، ولجوء إلى الأقاويل الضالة والمقالات الملحدة، فكانوا بذلك فريسة لهجومات ابن الحداد وردوده العنيفة، زعزع مذهبهم، وأفسد أحلامهم في السيطرة على عقول العامة. ودلت مواقفه على شجاعة علمية منقطعة النظير.

وبهذا يمكن اعتبار ابن الحداد، زيادة على أنه رأس المدرسة الكلامية القيروانية، علما من أعلام التفسير، بالمغرب العربي، على الرغم من أنه لم يترك تفسيرا كاملا. وظهوره في القرن الثالث الهجري ـ بداية ازدهار الحضارة والثقافة بالمغرب ـ يزيد من أهمية الرجل، خاصة وأنه لم

يُسبَق، في علم التفسير إلا من قبل يحيى بن سلام، صاحب أقدم تفسير متبق، حتى اليوم، في الثقافة الإسلامية. لكن هذا التفسير لم يشتهر كشأن أغلب آثار المغاربة، إذ بقي بين تونس والقيروان، ولم يحظ بالانتشار في المشرق.

ابن الحداد محدثا

روى ابن الحداد عن أبي الحسن الكوفي الذي كان يقيم بطرابلس، وانتقل إليه ابن الحداد للرواية عنه، ولعله لم يتقدم إلى أبعد من ذلك، حتى أنه لم تعرف له رحلة إلى المشرق. ولكن من خلال كتاب معاني الأخبار، الجزء الرابع الوحيد، الذي بقي من آثاره الحديثية، تظهر أسماء رواة كثيرين، في مقدمتهم إسحاق بن إبراهيم بن عباد الصنعاني، ومحمد بن إسحاق الصنعاني، كما حدث عن عبد الله بن أحمد بن حنبل وغيره... وأغلب مروياته في هذا الكتاب عن الأولَيْن: إسحاق بن إبراهيم، ومحمد بن إسحاق.

ويبدو أن هذا الكتاب ـ كما أشرت من قبل ـ يمثل الأثر الوحيد المتبقي من مرويات ابن الحداد، وقد تضمن السند الذي كان يعتمده، ومجهوده في شرح الأخبار المتعلقة خاصة بميراث الجدة، وببعض المسائل الأخرى.

كما روى أبو عثمان أحاديث كثيرة، استشهد بها أثناء مناظراته، إذ كان يستدل بالقرآن، ويثني بالحديث، في حالات عديدة، مدعما بذلك رأيه ومذهبه أمام خصومه: معتزلة وشيعة وغيرهم...

ابن الحداد متكلّما

اشتهر ابن الحداد بالمتكلم، المناظر، المجادل، المفحم للخصوم، حتى عدّ رأس المدرسة الكلامية السنية، في عصره. وقد ساعده على التألق في هذا المجال، تضلعه في العلوم الشرعية والعقائدية واللغوية، وذاكرته القوية، وشجاعته في الدفاع عن العقيدة الإسلامية السمحة، الواضحة.

ناقش معتزلة القيروان، وناظرهم ـ وهم أقدر الناس على الجدل ـ فأفحمهم وتفوّق على أقطابهم، كما ردّ على بعض رؤوسهم ـ معتزلة المشرق ـ في بعض مؤلفاته. وقد احتفظت المصادر بمجلس مناظرة ناقش فيه

المعتزلة بحضور الأمير الأغلبي، في مسألة خلق القرآن؛ وبمناظرته للفراء حول المكانية ـ مكان الله ـ وإفحامه له.(32)

وأكثر مناظراته التي بوّأته المكانة العالية والشهرة الذائعة، تلك التي كانت بينه وبين الشيعة، وخاصة منهم أبا عبد الله الداعي وأخاه أبا العباس. وقد بلغت مجالس مناظراته للشيعة قرابة أربعين مجلسا حسب حسن حسني عبد الوهاب(33).

والجدير بالملاحظة أن الشيعة عرفوا قيمة العلوم العقلية وأهمية التضلع في فنّ الجدل؛ كما اهتموا بالعلوم اللسانية، فكانوا متكلمين أقوياء، فصحاء. فلما انتصروا على الأغالبة، واحتلوا القيروان، وجدوا أنفسهم بين أناس لا يعرفون شيئا عن مذهبهم، قد تشبثوا بالمذهب السنّي تشبثا كليا. فماذا يصنع الشيعة، ولم يكن لهم من سند سوى أهل كتامة المعروفين بشدة بأسهم وقوتهم القتالية؟ لقد أيقنوا أن انتصارهم القوي في المستويين العسكري والسياسي لن يكون موازيا لطموحهم في الانتصار المذهبي. فلم يكن لهم من سبيل سوى أن يسلكوا طريقين: طريق الاضطهاد والتقتيل والترويع للمعارضين؛ وطريق الإقناع مع محاولة الإلزام بدعوتهم، ومن هنا عقدوا مجالس للمناظرة دعوا إليها كبار العلماء عسى أن يقنعوهم، فيدعوا العامة، ـــ وهم يثقون بهم طبعا ـ إلى المذهب الجديد، قصد اعتناقه والعمل بمقتضى مبادئه وتعاليمه، فيأمن الشيعة ما عسى أن ينشب من ثورات وفتن، وهم الذين خبروا هذه المناطق، وعلموا شيئا كثيرا من تاريخها وانتفاضاتها، وتمسكها بعقيدة أهل السنة ومذهب مالك، خاصة.

لكن هل تمّ لهم ما أرادوا؟ هل استجاب العلماء لدعوتهم وأثروا على العامة؟ لقد دعي ابن الحداد فيمن دعي من العلماء، فتزعم جموع أهل السنة، في مناظرة الشيعة، واستطاع أن ينتصر عليهم، ويفنّد مقالاتهم، ويصيب من دعوتهم المقاتل.

كان ابن الحداد معبرا عما يختلج في نفوس القيروانيين من تعلّق بالسنة واستماتة في الذود عنها، فلم يخفْ، ولم يرهب الموقف، ولم يذعن كما أذعن بعض العلماء إلى السلطة الجديدة، مخافة بطشها. وفعلا فقد عرّض ابن

(32) الخشني، المصدر السابق، ص 198 ـ 199.

(33) ورقات، 1/259.

الحداد نفســه للمهالك بتصــديــه للشيعة وخيـف عليه منهم. ولما نصح لــه بعضهم بتجنيب نفســه المخــاطــر، لأن الشيعـة قتلـوا رجلين من أصحــاب سحنون، وعروا جسديهما، ونودي عليهما: هذا جزاء من ذهب مذهب مالك، ردّ أبو عثمان بقوله: إني أربيت على التسعين، وما بي إلى العيش من حاجة، وقتيل الخوارج خير القتلى، ولا بـدّ لي من المناضلـة عن الـدين، وأن أبلغ في ذلك عذرا(34). كما أجاب ولده عبد الله لما أشفق عليـه، وقال له، يا أبت «اتّق الله في نفسك، ولا تبالغ في مناظرة الـرجل» رد عليه: «حسبي من له غضبت وعن دينه ذببت»(35).

وأثيرت في المجــالس التي اشترك فيهــا ابن الحداد، مســائل عقــائديــة وتشريعية كثيرة، بعضـها يتعلق بالنبـوة، وبمفهوم السنة، وبأحقية آل البيت في الخلافة، وبإمامة المفضول، وبتأويل آيات قرآنية تأويلا تعسفيا، لا يقبله منطق الشريعة واللغــة التي نزل بها الكتــاب العزيز؛ وبعضـهــا يتعلق بقيام رمضان وموقف الشيعة منه، ومنعهم له، باعتباره بدعة...

وتعتبر مجالس المنــاظرات التي احتفظت بعض المصــادر(36) بشيء منها، وثيقة سيــاسية فقهيــة ذات قيمة كبرى(37) كما أنها تعتبر وثيقــة عقائديــة فلسفية كلامية(38) تبرز إسهــام أحـد رجــال الفكـر الإســلامي، في القــرن الثالــث/ التاسع، والـذي سيطر على هــذا المجال، وأبلى فيه البـلاء الحسـن، استماتة في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، بالمجتمع القيرواني.

ابن الحداد فقيها

هذا جــانب آخر مــن جوانب شـخصيــة ابن الحداد، العلمية، يتجلّــى فيه تحصيله وذكــاؤه ومنهجه المبني على الاستقـلال في الرأي، هــذا المنهج الذي انتهى به إلى الاجتهاد في المسائل الفقهية وانتقاد مذاهب بعض أئمة الفقه.

---

(34) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 262.

(35) الخشني، طبقات، ص 199.

(36) الخشني، طبقات، ص 199 ـ 217؛ المالكي، رياض النفوس، 2/ 37 فما بعدها (مخطوط)؛ الدباغ معالم الايمان، ص 204 فما بعدها.

(37) حسين مؤنس، مقدمة كتاب رياض النفوس، ص 17.

(38) انظر لـزيادة الاطـلاع على أهمية هذا الجانـب الفكري: كتابي، وهـو بعنوان: المدارس الكـلامية بإفريقية. إلى ظهور الأشعرية، تونس، مطبعة دار العرب، 1986.

ويتضح منهجه الاجتهادي هذا في نبذه للتقليد الذي شاع في البيئة القيروانية، على عهده، حيث اقتصر شيوخ العلم وتلاميذهم على رواية أقوال مالك وكبار أتباعه وتدارسها والعمل بمقتضاها؛ وتخلّوا عن آراء أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى، في أغلب الحالات. ولقد فسّر ابن الحداد ظاهرة الوقوع في التقليد «بنقص العقول ودنا الهمم.»(39) اعتبارا منه أن أصحاب العقول الكاملة النيرة، والهمم العالية، لا يتوقفون عند آراء المجتهدين، بل يسلكون مسلكهم، ويعملون أنظارهم، ويستنبطون، ويتألّقون. ولذا قال متحدثا عن نفسه: «كيف يسع مثلي ممن آتاه الله فهما أن يقلّد أحدا من العلماء بلا حجة ظاهرة؟»(40).

ولا شك أن ابن الحداد في نبذه للتقليد وفي نقده لمذاهب بعض الفقهاء وحتى الأئمة منهم، يؤكد أن الإسلام دعوة إلى تحرير العقول ودفعها إلى تأدية وظيفتها في الاستنباط والكشف والتأصيل، نتيجة للصبر على تعميق النظر والتدقيق في التحليل والتعليل.

والمتأمل في حياة ابن الحداد يراه نشأ نشأة مالكية خالصة؛ قد تحمس لمذهب شيوخه وخاصة سحنونا منهم، إلا أنه كان حركيا، مجتهدا، معتزا بفهمه وقدرته على الاستقلال بالرأي. وقد قيل إنه تخلّى عن مذهب مالك، ومال إلى مذهب الشافعي، وأنه قد عاب المدونة ـ الكتاب الثاني للمالكية وموسوعتها الكبرى ـ وهذا القول أثر عن ابن أبي سعيد، أورده عياض ولم يقتنع به، وعلّق عليه بأن أبا العرب ـ تلميذ ابن الحداد ـ والخشني ـ تلميذ هذا الأخير ـ لم يذكرا هذا الانتقال إلى مذهب الشافعي، وهما أعلم بشيوخهم وأصحابهم في المذهب(41). ولعلّ الذي يدعّم رأي عياض، أن ابن الحداد قد ألّف في الرد على الشافعي، فكيف يميل إلى مذهبه ثم يردّ عليه؟ ولكن بالإمكان افتراض أن ابن الحداد ـ وهو المعروف بحركيته الفكرية وثوريته المذهبية ـ قد اهتم بمذهب الشافعي، من باب الإعجاب ببعض اجتهاداته واستقلاله بالرأي في مسائل فقهية متعددة، فمال إليه لمدة، ثم تفطّن إلى بعض مغالطه، فتولّى الرد عليه. ولو تمّ الوقوف على كتاب الرد

(39) الخشني، طبقات، ص 149.

(40) ن. م، نفس الصفحة.

(41) تراجم، ص 352.

على الشـافعي الـذي وضعه ابن الحداد لأمكن تحديـد الفترة التي ردّ فيهـا عليه، ولتيسّـر تعرّف مدى التزام ابن الحداد بمذهب مالك في إقامة رده على الشافعـي، لأن تلميذه أبا بكـر محمد بـن اللباد القيرواني (ت 333/ 944م) صـاحب كتاب الرد على الشافعي، كان مغاليا في نقض آراء الشـافعي، وشديد التعصب لمذهب مالك(42).

وأشـارت بعض المصادر إلى أن أبـا عثمان كان سيء الظن، بأبي حنيفـة، حيث أخـذه في مسائل شتى بلغت أربعمائة، ركب فيهـا أبـو حنيفة المحـال اضطرارا(43). على أني أميل إلى إمكانية وجود شيء من التقارب بين الرجلين، لأن مذهب أبي حنيفة، كما هو معلوم، مبني على إعمال الرأي والقياس، وأبو عثمان مذهبه «النظـر والقياس والاجتهاد»(44)، هذا بعد التسليـم بمخالفته لأبي حنيفة في بعض اجتهـاداته؛ وإلا فإن ابن الحداد سيتنـاقض مع نفسه، إذ كيف يكون مذهبه النظر والقياس والاجتهاد، وهو يسيء الظن بالمجتهدين، وبأحد أئمتهم خاصة؟

من هنا يمكن القول بأن أبا عثمان كـان شديدا على كل أصحاب المذاهب، في مطلع حياته، لما كـان مالكيا متمحّـضا. ثم لما استكمل أسبـاب المعرفة في أصول المذاهب الفقهية، وأصبح هو بدوره من أهل الاجتهاد، مال إلى احترام آراء المجتهدين إذا لم تتعارض مع الحقائق الثابتة بالنص ـ كتابا وسنة ـ أو بالاجماع، أي أنه كان يحترم الاجتهـاد المبني على المعرفة الوثقة والمفضي إلى الرأي السديد. أما إذا رأى فيه خلافا لأصول الشريعة وكلياتها فإنه ينتقده، ويردّ على أصحابه.

وإني أستبعد عيبه للمدونة، إلا أن يكـون من باب ذم التقليد والدعوة إلى إعمال الرأي والاجتهاد، من قبل تلاميذه حتى يتعودوا على النقد الموضوعي، والجري وراء الحقيقة دون التـزام بالبحث عن قـائلها، ولقـد حدّد شيخهم منهجـه الفقهي بقولـه: «ليس الفقـه حمل الفقه، وإنما الفقـه معـرفة الفقـه والفطنة فيه والفهم بمعانيه»(45).

---

(42) انظر: ابن اللبـاد، الرد على الشـافعي، تحقيق وتقديم عبـد المجيد بن حمدة، تـونس، مطبعة دار العرب، 1986.

(43) الدباغ، معالم، 2/ 203.

(44) الخشني، المصدر السابق، ص 149.

(45) المالكي، رياض النفوس، 1/ 37.

وهنا تصح الحقيقة التي أشار إليها أصحاب الطبقات، والمتمثلة في عدم تقليده لأصحاب المذاهب، واشتهاره بالاجتهاد، حتى عدّ من المجتهدين الأوائل(46)، وتظهر الحقيقة الأخرى المنسجمة مع نبذ التقليد، وهي ولوعه بحرية الرأي، وجهره بما يراه، في غير خوف ولا مهادنة، وحتى في أشد الأحوال قسوة وخطرا، وسواء تعلّق الموقف من المخالفين في المجال العقائدي أو السياسي أو التشريعي.

ولقد حاولت جاهدا، أن أقف على بعض آراء استقلّ بها ابن الحداد، في الفقه، فلم أتمكن بسبب ضياع كتبه، وعلى الأخص، كتاب الرد على الشافعي. وأما كتاب الأمالي في مسائل تتعلّق بالطلاق، فهو مخطوط صغير أضرت به الرطوبة، وقد كتب بخط رقيق، رديء إلى حدّ استحالة الإفادة منه.

وباختصار فإن ابن الحداد قد لعب دورا طلائعيا في الدفاع عن العقيدة السنية. وكان إحدى فلتات الدهر سعة معرفة وشجاعة، ومواقف صامدة ضد المبتدعة، وضد الشيعة الإسماعيلية، لما حلّوا بالقيروان، أواخر القرن الثالث/بداية العاشر.

وهو يتميز بشخصية علمية متعددة الأبعاد، لها بعد ثقافي نقلي، يتمثل في التفسير ورواية الحديث، وفي الفقه تحملا ونقاشا واجتهادا؛ ولها بعد ثقافي عقلي يظهر خاصة في مجال علم الكلام؛ كما أن للرجل بعدا ثقافيا آخر يتجلّى في اهتمامه بالمباحث اللغوية والنحوية، وبقرض الشعر. ومن أهم أبعاد هذه الشخصية العبقرية البعد التاريخي، فقد اشتهر ابن الحداد بعمق ثقافته التاريخية، فهو إخباري، نسّابة، ذو معرفة واسعة بالرجال وأحوال الدول، اعتمده أصحاب الطبقات في التعريف بالعلماء والفقهاء والزهاد... وخاصة ما كان من قبل تلميذه أبي العرب محمد بن أحمد التميمي.

إن ابن الحداد مفكر، ألمعي، عالم، شجاع، التزم بقضيته العلمية والنضالية، طيلة حياته، فلم يفتر له عقل ولا جسم، ولم ينثن له عزم. فكان ثورة اجتهادية في مجال الفروع، وحربا قائمة، دائمة على جميع مخالفي المذهب الحق ـ مذهب أهل السنة والجماعة ـ كان ابن الحداد خلاصة الفكر الاسلامي، بالقيروان، في القرن الثالث/ التاسع، بلا منازع.

عبد المجيد بن حمدة

---

(46) ابن حزم، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق حسن عباس، القاهرة، د. ت ص 335.

فهرس المصادر والمراجع

● ابن الحداد (أبو عثمان سعيد بن محمد القيرواني)
كتاب الاستواء
مخطوط، المكتبة الوطنية، ضمن مجموعة المكتبة العتيقة القيروانية.
● ابن حزم (أبو محمد علي بن محمد الظاهري)
جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق حسن عباس، القاهرة، د.ت.
● ابن حمدة، عبد المجيد
المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، تونس، مطبعة دار العرب، 1986.
● الخشني (أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد).
طبقات علماء إفريقية، نشر ابن أبي الشنب، الجزائر 1333/1914.
● الخوانساري (محمد باقر الموسوي الاصبهاني).
روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ايران، ط 2 ـ 1307 هـ.
● الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)
طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1373/1954.
● الدباغ (عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله الانصاري).
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس، المطبعة العربية التونسية، 1320هـ.
● ابن عاشور محمد الفاضل
أعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي. تونس. د.ت
● عبد الوهاب (حسن حسني)
ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الاول، تونس، 1965.
● أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني)
طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق، علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968؛ ونشر ابن أبي الشنب، الجزائر، 1333 ـ 1914.
● عياض (أبو الفضل عياض السبتي)
تراجم أغلبية مستخرجة من ترتيب المدارك للقاضي عياض، تحقيق محمد الطالبي، تونس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968.
ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت، دار المكتبة، طرابلس، ليبيا دار مكتبة الفكر، 1387/1967.
● ابن اللباد أبو بكر محمد بن محمد المالكي (أبو بكر عبد الله بن ابي عبد الله).
رياض النفوس، الجزء الثاني، مخطوط دار الكتب المصرية رقم 1945
رياض النفوس الجزء الاول، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1951.